الفصل الرابع

ذكر بعض الأضرار والآفات الناجمة عن التكاثر في هذه الدنيا

إن في نسيان الآخرة والركون إلى الدنيا والتكاثر فيها لأخطارًا جسيمة في الدنيا والآخرة، يجب علينا أن نحذرها ونحذر منها، ونسعى للتخلص مما حل بنا منها، ومن أهم هذه الأضرار ما يلي:

- **أولًا: التعرض لسخط الله ﷻ وعقابه بالتفريط في أداء الواجبات والطاعات، والجرأة على المعاصي والمحرمات**

لا يستوي من كانت الآخرة همه ولم يركن إلى الدنيا، مع من كانت الدنيا همه قد انشغل بالتكاثر فيها عن آخرته.

فبينما نجد الأول حريصًا على فعل الطاعات من واجبات ومستحبات، منتهيًا عن المعاصي والمحرمات، خائفًا من يوم الحساب، فإنا نجد الآخر المنشغل بدنياه المكاثر بها، قد فرط في الكثير من الواجبات، وتهاون بالمحرمات، وقل واعظ الله والدار الآخرة في قلبه، وذلك لضعف هم الآخرة الذي يحول بينه وبين تركه للطاعات وفعله للمحرمات، ومآل هذا إلى سخط الله وعذابه، إن لم يرحمه الله.

يتحدث سيد قطب رحمه الله تعالى عن جاذبية المعصية لمن نسي الآخرة، واغتر بالحياة الدنيا، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فيقول: (الكل يموت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ ﴾) كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة، لا فرق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة... إنما الفارق في شيء آخر، والفارق القيمة التي يكون فيها الافتراق، وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان، القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد. والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب.

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولفظ ﴿ زُحْزِحَ ﴾ بذاته يصور معناه بجرسه، ويرسم هيئته، ويلقي ظله! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها، ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلًا قليلًا، ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها، ويستنقذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة فقد فاز. صورة قوية، بل مشهد حي، فيه حركة وشد وجذب! وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته، فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هي زحزحتها عن النار! أليس

الإنسان - حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة - يظل أبدًا مقصرًا في العمل.. إلا أن يدركه فضل الله؟ وهذه هي الزحزحة عن النار؛ حين يدرك الناس فضل الله، فيزحزحه عن النار! ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إنها متاع، ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة.. إنها متاع الغرور، المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعًا، أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع! فأما المتاع الحق، المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله.. فهو ذاك.. هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار)[1].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال ﷻ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

ومن المحرمات التي يكثر فعلها بسبب الركون إلى الدنيا والتكاثر فيها ما يلي:

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٢٢.

أ- ضعف الإخلاص، والوقوع فيما يضعفه أو يزيله، من الرياء وحب الرئاسة والشهرة وكثرة الأتباع، وما ينشأ عن ذلك من العجب والكبر، والغرور بالدنيا وزينتها، والتعالي على الناس بسببها.

ب- عدم المبالاة بالمصدر الذي يحصل منه على الدنيا من حلال أم حرام، فالمهم أن يكثر ماله، وأن يكون أكثر من غيره مالًا أو جاهًا، ولو كان ذلك من ربًا أو غصب أو غش أو رشوة وغيرها، قال الله تعالى ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

جـ- ظلم العباد والتعدي على حقوقهم أو منعهم إياها، وهذا إنما ينشأ من الانشغال بالدنيا ونسيان الآخرة، وما فيها من الحساب، والفصل بين الخلائق، وإنصاف المظلوم من ظالمه. إذ لو كان هذا على البال، لما كان الظلم من العباد.

د- التفريط في أداء الصلاة في وقتها ومع جماعة المسلمين، ذلك للانشغال بالدنيا والتكاثر فيها، فليس أثقل على أهل الدنيا من أداء الصلاة في جماعة، والمحافظة على أوقاتها وأركانها وخشوعها، فضلًا عن نوافلها.

هـ- التفريط في أداء الزكاة والبخل بها، فضلًا عن الصدقات والنفقات المستحبة، وذلك لتمكن حب الدنيا من القلب ونسيان الآخرة.

يتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن أوجه كون حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدًا للدين، فيقول:

(إن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة، لاشتغاله عنه بمحبوبه.

والناس ها هنا مراتب:

- فمنهم: من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه.
- ومنهم: من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله؛ ولخلقه؛ فلا يقوم بها ظاهرًا ولا باطنًا.
- ومنهم: من يشغله حبها عن كثير من الواجبات.
- ومنهم: من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره.
- ومنهم: من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه.

• ومنهم: من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهرًا لا باطنًا، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها؟ هذا من أندرهم.

وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه)[1].

ثانيًا: انتشار الحسد والأحقاد والفرقة والبغضاء بين الناس

قد مر بنا قوله ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[2].

هذا ما كان يخافه نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام الحريص على أمته، المشفق عليهم، حيث لم يخش على أمته الفقر، كما يخشى ذلك الوالد على ولده، وإنما كانت خشيته ﷺ على أمته من الغنى وكثرة الدنيا وانبساطها على الناس، وما يؤول إليه ذلك من التحاسد والتباغض والفرقة، بل والاقتتال في بعض الأحيان، وصدق

(١) عدة الصابرين ص٣٥٤.
(٢) سبق تخريجه.

الرسول ﷺ فكم رأينا من القطيعة والهجران والشحناء بين الأقارب والإخوان والأصدقاء بسبب التكاثر في هذه الدنيا الزائلة، وكم تقاتل أهل المناصب والرياسات فيما بينهم، وهم أشقاء وأعمام من أجل هذه الدنيا ومناصبها وجاهها. هذا هو عاقبة التكاثر والتنافس في الدنيا، ألا وهو الهلاك في الدنيا والآخرة، عياذًا بالله تعالى.

قال الأصمعي: (مر قيس بن زهير ببلاد غطفان، فرأى ثروة وجماعة وعددًا، فكره ذلك، فقال له الربيع بن زياد: إنه يسوؤك ما يسر الناس، فقال له: يا أخي إنك لا تدري أنه مع الثروة والنعمة التحاسد والتخاذل، وأن مع القلة التحاشد والتناصر)[1].

ويقول ابن الجوزي: (تأملت التحاسد بين العلماء، فرأيت منشأه من حب الدنيا، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩][2].

(وقد يقع التحاسد بسبب الإعجاب بالفضائل في الأنساب والعلم والعبادات، والغالب أن الحسد لا يقع إلا بين المشتركين في فضيلة من الفضائل، أو في شيء من الأسباب الدنيوية، فلا يحسد الفقيه النحوي، ولا التاجر الجمال، ولا الصانع البقال)[3].

---

(١) المجالسة وجواهر العلم ١/ ٤٧١.
(٢) صيد الخاطر ١/ ٢.
(٣) انظر: مقاصد الرعاية لحقوق الله تعالى ص١٥٣.

ولـو تأملنـا الفرقة الحاصلة اليوم بين بعـض الدعاة وفي صفوف بعـض المجاهدين، لرأينـا أن من بعض هذه الأسـباب: التنافس على الدنيا ومناصبها وزينتها الفانية، نسأل الله ﷻ العافية.

ثالثًا: اختلال الموازين واضطراب التصورات وسفول الأخلاق

لا يسـتوي مـن يؤمن بـالله واليوم الآخـر ويوقن بيوم الحسـاب والجـزاء، مـع من لا يؤمـن بالآخرة أو يؤمـن بها، لكنـه في لهو وغفلة عنها بتكاثره في هذه الدنيا الفانية، إنهما لا يستويان أبدًا في الدنيا ولا في الآخـرة، قال تعـالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ويقول سـبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ويقول سـبحانه عن الفريقـين في الآخرة ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، إن الفريقين لا يستويان في موازينهما، التي توزن بها الأشياء والمواقف والأحداث،ولا يستويان في أخلاقهما، فبينما تسـمو أخلاق الأول، وتنضبط موازينه بموازين الشرع والإيمان باليـوم الآخـر، فإنـا نجدها عنـد الراكنـين إلى الدنيـا أخلاقًا سـافلة، وموازين مختلة مضطربة. يقول الله ﷻ في وصف هذا الفريق: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية:

(ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها، ولا ينتظر ما وراءها، لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون، فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال..

هذا يرى ظاهرًا من الحياة، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن، ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس، والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء)[1].

إن الراكنين إلى الدنيا المتكاثرين فيها لا يرون إلا هذه الحياة الدنيا، فهم يتنافسون فيها على هذا الحجر الضيق، فإن وزنوا أمورهم فبميزان الدنيا يزنون، وإن اتخذوا مواقفهم وبنوا أحكامهم، فهم من هذه الدنيا ينطلقون، وإن كان عندهم شيء من الأخلاق فبقدر ما تحقق لهم مصالحهم وشهواتهم فحسب، وإن وزنوا الناس فبميزان الدنيا والمال والجاه، لا بميزان الدين والتقوى، وإن وزنوا الفرح

(١) في ظلال القرآن الآية (٧)، من سورة الروم.

والحزن، فمن أجل الدنيا يفرحون إذا أقبلت، ويحزنون إذا أدبرت، أما مواسم الآخرة فلا يفرحهم إذا أقبلت، ولا يحزنهم فواتها. وإن وزنوا الفقر والغنى فبميزان الدنيا يزنون، وليس في حسابهم قوله ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»[1].

وهكذا في بقية الموازين[2]، وأختم هذه الفقرة بالقصة العجيبة التي قصها الله ﷻ لنا في كتابه، وكررها سبحانه في القرآن، لما فيها من العظة والعبرة، يبين لنا سبحانه فيها كيف تغيرت موازين وأخلاق سحرة فرعون من موازين أرضية دنيوية، همها المنصب والجاه قبل إيمانهم بالله ﷻ واليوم الآخر، إلى موازين عالية وهمم وأخلاق سامقة بعد إيمانهم بالله واليوم الآخر. قال الله ﷻ عن حالهم واهتماماتهم حال كفرهم قبل مباراتهم مع موسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].

فكان همهم قبل الإيمان المنصب والأجر والقرب من فرعون. أما بعد وضوح الحق وإيمانهم بالله واليوم الآخر، فقد تغيرت الموازين، وكان همهم مغفرة الله ﷻ لهم، والثواب الجزيل في جنات النعيم، وكان

(١) البخاري (٦٤٤٦) مسلم (١٠٥١).
(٢) للتوسع في هذه الموازين يرجع إلى كتاب (الميزان) للمؤلف.

من ذلك تحديهم لفرعون وتهديداته وثباتهم على الحق. قال الله تعالى عن موقفهم بعد أن هددهم فرعون بالقتل والصلب بعد سجودهم لله ﷻ: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٢ - ٧٦].

رابعًا: طول الأمل وضياع الأعمار

إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد طول الأمل والأماني الخادعة، التي تجعل صاحبها في غفلة شديدة عن الآخرة، وذلك باغتراره بزينة الحياة الدنيا والتكاثر فيها، وتضييع ساعات العمر النفيسة في اللهث وراءها، حتى يحل الأجل الذي يقطع هذه الآمال، وتذهب النفس حسرات على ما فرطت في عمرها، وأضاعت من أوقاتها.

يقول ابن قدامة رحمه الله تعالى عن سبب طول الأمل:

(واعلم أن السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا؛ فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت، الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه.

فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر قال: إلى أن يصير شيخًا، وإن صار شيخًا، قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة، فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج، يؤخر يومًا بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

السبب الثاني: **الجهل**، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر،

وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من صيف وشتاء وربيع وخريف، وليل ونهار، ولا هو مقيد بسن مخصوص من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت)[1].

خامسًا: الطمع والجشع وعدم القناعة والتكبر على الناس

يزداد طمع الناس وجشعهم وتضعف قناعتهم ورضاهم بما رزقهم الله ﷻ، حينما يتكاثرون في هذه الدنيا الفانية، حيث لا يرضيهم مسكن يسكنهم، ولا طعام يشبعهم، ولا لباس يواريهم، ولا مركب يحملهم، لأن أبصارهم وبصائرهم ترنو إلى من فوقهم وتتكاثر معهم، ولا تبصر من تحتهم، فيزدرون نعمة الله عليهم، ولا يقنعون بما آتاهم الله.

ومن خطورة الطمع وعدم القناعة أن صاحبها يسعى جاهدًا لتكثير ماله، وتوسيع جاهه، ولو بالطرق المحرمة، كأن يداهن المسؤول من أجل منصبه، وأن يتنازل الداعية عن دعوته، أو مبدئه طمعًا في مال أو جاه، أو أن يحسد الأخ أخاه على نعمة الله عليه، أو أن يذل المرء نفسه لغير الله تعالى رغبة في دنيا فانية. قال ﷺ: «**شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس**»[2].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) الحلية لأبي نعيم ٣/ ٢٥٣ والحاكم في مستدركه وصححه ٤/ ٣٢٤.

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع**»[1]، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»[2].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟**» قلت: نعم يا رسول الله، قال ﷺ: «**فترى قلة المال هو الفقر؟**» قلت: نعم! يا رسول الله، قال ﷺ: «**إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب**» الحديث[3].

وتلك حقيقة لا مرية فيها؛ فكم من غني عنده من المال ما يكفيه وولده ولو عمر ألف سنة؛ يخاطر بدينه وصحته، ويضحي بوقته يريد المزيد! وكم من فقير يرى أنه أغنى الناس؛ وهو لا يجد قوت غده! فالعلة في القلوب: رضىً وجزعًا، واتساعًا وضيقًا، وليس في الفقر والغنى[4].

والقناعة لا تعني أن لا يكسب المرء في هذه الدنيا، أو لا يتاجر فيها، ويضرب في الأرض بطلب رزقه، بل هذا مطلوب ومرغوب

(١) أحمد ٦، ١٩ والترمذي (٢٢٤٩) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.
(٢) مسلم (١٠٥٤).
(٣) ابن حبان في صحيحه (٦٨٥).
(٤) انظر مقال (القناعة مفهومها ومنافعها) إبراهيم الحقيل، مجلة البيان عدد (١٤١).

فيه لإعفاف النفس ومن تعول أو صرفها في وجوه الخير، ولكن القناعة تأبى أن تلج الدنيا في القلب، وتملك على الإنسان نفسه حتى يمنع حق الله ﷻ فيها أو أن يتكاسل عن طاعة الله ويفرط في الفرائض ويرتكب المحرمات من ربا ورشوة وغش، وكسب خبيث حفاظًا على هذه الدنيا أو تنمية لها.

كما تأبى القناعة على جامع المال من أن يحسد أخاه المسلم على نعمة الله ﷻ، أو أن يتسخط بنصيبه في الدنيا، أو أن ينافق من أجل منصب أو جاه أو مال.

وإن مما يكرس الطمع والجشع ويذهب القناعة ما ذكره الماوردي رحمه الله من الأسباب التي تمنع القناعة بالكفاية، وتدعو إلى طلب الزيادة، وهي على سبيل الاختصار:

١ - منازعة الشهوات التي لا تنال إلا بزيادة المال وكثرة المادة، فإذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله إليها، وليس للشهوات حد متناه، فيصير ذلك ذريعة إلى أن ما يطلبه من الزيادة غير متناه، ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه، فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده وأتعابه، مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات، والتعرض لاكتساب التبعات، حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها إلى ما تدعو إليه شهواتها فلا تنزجر عنه بعقل، ولا تنكف عنه بقناعة.

٢- أن يطلب الزيادة ويقتني الأموال ليدخرها لولده، ويخلفها لورثته، مع شدة ضنه على نفسه، وكفه عن صرف ذلك في حقه، إشفاقًا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب، وهذا شقي بجمعها مأخوذ بوزرها، قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذي لب، منها:

أ- سوء ظنه بخالقه: أنه لا يرزقهم إلا من جهته.

ب- الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه.

ج- ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله، وقد قيل: إنما مالك لك أو للوارث أو للجائحة؛ فلا تكن أشقى الثلاثة.

د- ما لحقه من شقاء جمعه، وناله من عناء كده، حتى صار ساعيًا محرومًا، وجاهدًا مذمومًا.

هـ- ما يؤاخذ به من وزره وآثامه، ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه، وقد حكي أن هشام بن عبدالملك لما ثقل بكى ولده عليه، فقال لهم: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما كسب، وتركتم عليه ما اكتسب، ما أسوأ حال هشام إن لم يغفر الله له! وقال رجل للحسن رحمه الله: إني أخاف الموت وأكرهه، فقال: إنك خلفت مالك، ولو قدمته لسرك اللحاق به.

٣- أن يجمع المال ويطلب المكاثرة، استحلاءً لجمعه، وشغفًا باحتجانه؛ فهذا أسوأ الناس حالًا فيه، وأشدهم حِرمانًا له، قد توجهت إليه سائر الملاوم، وفي مثله قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤][1].

سادسًا: آفة الترف وما ينشأ عنها من الترهل والوهن والفسق وعدم تحمل المشاق وترك الجهاد والدعوة إلى الله ﷻ وضعف النفوس والاستسلام للأعداء.

الترف هو مجاوزة الاعتدال في النعم، والإكثار منها على وجه التوسع والتكاثر، والسعي لبلوغ الغاية في حاجات لذات الجسد من مأكل ومشرب أو مسكن أو مركب أو لباس أو نكاح.

والمتأمل في كتاب الله ﷻ وما ورد فيه من ذكر للترف والمترفين يجد أنه لم يذكر إلا على وجه الذم، وأن ترف المترفين كان سببًا في إعراضهم عن الحق الذي أدى إلى هلاكهم في الدنيا والآخرة، قال الله ﷻ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

(١) أدب الدنيا والدين (باختصار) ٣١٧- ٣٢٤.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية:

(والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة والسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها.

ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها)[1].

وبين الرسول ﷺ أثر الترف في الضعف أمام الأعداء وترك جهادهم والاستسلام لهم في قوله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها**» قال قائل: ومن قلة نحن يومئذ. قال ﷺ: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال ﷺ: «**حب الدنيا، وكراهية**

(١) في ظلال القرآن الآية (١٦) من سورة الإسراء.

المـوت»[1]، قال في عون المعبود في شرحـه للحديث: (قال في المجمع: أي يقرب أن فرق الكفر وأمم الضلال تداعى عليكم، أي يدعو بعضهم بعضًـا إلى الاجتماع لقتالكم وكسر شـوكتكم ليغلبوا على ما ملكتموه من الديار كما أن الفئة الآكلة يتداعى بعضهم بعضًا إلى قصعتها، التي يتناولونهـا من غير مانـع... (ومن قلة) أي ذلـك التداعي لأجل قلة نحن... قوله ﷺ: (لينزعن) أي ليخرجن، (المهابة) أي الخوف والرعب (وليقذفـن الوهن) أي الضعف، وكأنه أراد بالوهن ما يوجبه. ولذلك فسره بحب الدنيا وكراهة الموت. قال الطيبي: وهما متلازمان، فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين)[2].

قـال النحـاس: (اعلم أيها الراغب عما افـترض عليه من الجهاد، الناكب عن سـنن التوفيق والسداد، ليت شعري هل سبب إحجامك عن القتال؟ واقتحامك معارك الأبطال، وبخلك في سبيل الله بالنفس والمال إلا طول أمل، أو خوف هجوم أجل، أو فراق محبوب من أهل ومـال، أو ولـد وخدم وعيال، أو أخ شـقيق أو قريب عليك شـفيق، أو ولي كريـم أو صديـق حميم، أو حب زوجة ذات حسـن وجمال، أو جـاه منيـع، أو منصب رفيع، أو قصر مشـيد أو ظل مديـد، أو ملبس بهـي أو مأكل هنـي؟!! ليس غير هـذا يقعدك عن الجهاد، ولا سـواه

(١) أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد ٥/ ٢٧٩ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٨٣).
(٢) عون المعبود ١١/ ٢٧٢، ٢٧٣.

يبعدك عن رب العباد، وتالله ما هذا منك أيها الأخ بجميل، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[التوبة: ٣٨](١).

وقد انتشر اليوم ليس في حياة العامة فحسب، بل في حياة كثير ممن ينتسب إلى العلم والدعوة - وما أبرئ نفسي - وذلك بصورة تنذر بالخطر وتوجب علينا اليقظة والحذر، وللتدليل على ذلك أسوق بعض ما ذكره الأستاذ فيصل البعداني عن آثار ومظاهر الترف في حياة بعض الدعاة، ومنها:

- (عدم الحرص على الطاعة، والتواني عن القيام بما يقرب في الآخرة، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بذات الشخص كصلاة النفل وصيام التطوع، أو فيما يتعلق بشؤون الدعوة، إذ تكثر عند التنفيذ المشاغل، وتتعدد المبررات للتقاعس عن العمل أو التأخر في أدائه، وفي المقابل توجد - لدى ذلك الصنف - عجلة في تحصيل وسائل الترف، وسرعة في تحقيق مطلوبات النفس وشهواتها.

- تتبع أقوال أهل العلم للأخذ بالأيسر منها، ويرجع ذلك إلى أن كثرة النعم تقود إلى الدعة والراحة، وتلك تقود إلى اقتحام سبيل

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ص١١٣.

الشهوات والانغماس في الملذات، التي قد لا يجد العبد متنفسًا له فيما أحل الله، فيقرر الأخذ بما يراه حرامًا، ولكن لكي يزيل الحرج عن نفسه، ويدفع عنه لوم الآخرين - إن وجد - يقوم بتتبع أقوال أهل العلم في الأمر الذي قرر إتيانه إلى أن يجد له عالمًا في القديم أو الحديث يقول بجواز فعله، فيفرح به ويبدأ بإعلانه ونشره، لا اعتقادًا بصحة ذلك القول والرغبة في إذاعته، ولكن حبًّا في رفع الحرج عن النفس، نظرًا لموافقة ذلك القول لما قد عزمت نفسه على فعله.

- العجب بالنفس والتكبر على الآخرين، وهاتان الصفتان موجودتان لدى بعض الدعاة، نتيجة عيشهم في أوساط النعم، ولكنهم لا يتمكنون - في الغالب - من الشعور بها، إلا من أدام منهم النظر في حاله، أو نبهه عليها آخر ممن وفقهم ربهم وصانهم من الوقوع فيها، وذلك راجع إلى كونها تبدأان في النفوس كخيط رفيع جدًّا لا يرى ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يبين ويتضح، ويكون الداعية عند ذلك قد غفل، وخف مبدأ محاسبته لنفسه.

- عدم قيام المترف بحاجاته الذاتية والاجتماعية، التي يتمكن من القيام بها، والمجيء بالخدم رجالًا ونساء، لكي يقوموا بذلك من غير حاجة، وإنما رغبة منه في ترفيه نفسه، وتقديم الراحة لأهله وأولاده، وحبًا منه في التفاخر والتباهي والظهور بمظهر المتميز أمام بقية أفراد المجتمع.

- كثرة استخدام وسائل الترويح عن النفس من مزاح وألعاب ونزهة وزيارات كثيرة تخرج بالترويح عن الأمر الذي شرع له، وتصبح في حياة كثير من الناس كأنها هي الأصل، والجد هو الفرع.

- ضياع الأوقات، وانتشار البطالة في حياة بعض من الدعاة والمصلحين، حيث تكثر ساعات نومهم، ويتتابع فناء أعمارهم دون أن يقضوا شيئًا منها في أمر ينفعهم في دينهم ودنياهم.

- الإفراط في تناول الطعام والشراب، وتوفير متطلبات النفس مما لذ وطاب، مما جعل جم غفير من الناس - دعاة وغيرهم - يعانون بسبب ذلك من السمنة وكثير من الأمراض الناشئة عن التخمة، وكذلك الإفراط في زخرفة البيوت والأثاث والأواني الفاخرة.

- جعل المال في الملابس الراقية، والاكتفاء بلبس الجديد الفاخر، حتى كثرت بسبب ذلك الملابس غير المستخدمة في المنازل، وتكدست مع وجود تنوع في الاستعمال، حسب تعدد فصول العام، واختلاف أوقات اليوم، ويبرز الترف في هذا الجانب لدى النساء بصورة واضحة.

- صرف الأموال الكثيرة في السيارات والحرص على ضخامتها وتعددها، حسب أحجامها وأنواعها، وتسليم بعضها لمراهقين يستخدمونها- غالبًا - في غير ما وضعت لها.

- الاستكثار من وسائل الزينة والاعتناء الزائد بالنفس، والإفراط في التدهن والتطيب والترجيل للشعر، ونحو ذلك من أمور الناس، حتى إن بعضهم ليزيد إنفاقه على زينته وبعض مظاهر الترف الأخرى على دخله، مما يضطره إلى الاقتراض.

- كون المترفين أكثر عرضة للفتور والتراجع عما هم عليه من خير ودعوة، أمام الفتن التي تلازم في الغالب الدعاة، والعقبات التي تعترض مسيرة الدعوة. والمترف من الدعاة أقرب من غيره إلى التنازل عن مبادئه وثوابته، بل إن بعضهم قد يتحول أمام المغريات والخوف من أفول الترف وانصراف الملذات إلى الوقوف في وجه الدعوة، وكيل التهم لها، وإثارة الشبه حولها، ومحاولة الوقيعة بين حملتها.

- إن الداعية المترف متعود على الإنفاق على خواصه بكثرة واسعة؛ فإذا أوكل إليه شيء من أموال الدعوة فعل بها كما يفعل بماله غالبًا، والأصل أنها لا تصرف إلا في الأمور الضرورية والحاجية، وما زاد عن مكان فالمكان الآخر في أمس الحاجة إليه.

- إن الداعية المترف أقل اهتمامًا بدينه ودعوته والقيام بها من غيره، وذلك لأنه عقد همته للشهوات والتلذذ بالنعم والملذات وطلب أسباب ذلك.

- إن الداعية المترف أقل إفادة للمدعوين من غيره، وذلك لأن انغماسه في النعيم وتحصيل أسبابه مانع له من التزود بالعلم الشرعي، مما يعني اكتفاءه بتقديم ما عنده من معلومات، فإذا انتهت بدأ بتكرارها. وهذا من دواعي عدم قبول الناس للمترف.
- الترف من أسباب زوال الدعوات وأفولها، ما لم يبادر كبار الدعاة إلى إصلاح الوضع وتسديد الأمر، لأن انتشار الترف بين مجموعة من الدعاة من غير نكير يؤدي إلى اتساعه وانتشاره بين فئات أخرى، نظرًا لحب النفوس لذلك، واتخاذ كل فئة لمن قبلها قدوة، مما يؤدي إلى ضعف الأنشطة في البداية نتيجة فتور بعض الدعاة، وبعد ذلك يبدأ تساقط الفاترين مجموعة بعد مجموعة، نتيجة الانهماك بزخرف الحياة والتشاغل بزينتها)[1].

سابعًا: كثرة الهموم والغموم والشعور بالاكتئاب وفقدان السعادة

يظن بعض الناس أن أهل الدنيا المكاثرين فيها المترفين فيها يعيشون في سرور وسعادة؛ ولكن الحقيقة أن كثيرًا من الراكنين إلى الدنيا الغافلين عن الآخرة، يعيشون حياتهم في قلق وكآبة وهم، وهذا ما أشار إليه الرسول ﷺ في قوله: «**تعس عبدالدينار وعبدالدرهم وعبدالخميصة**»[2]، وكذلك قوله: «**من كانت الآخرة همه جعل الله**

(١) مجلة البيان العدد (٨٥) باختصار وتصرف يسير.
(٢) سبق تخريجه.

غناه في قلبه، وجمع عليه شـمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيـا همـه جعل الله فقـره بين عينيه، وفـرق عليه شـمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[1]، وحال أهل الدنيا يشهد بذلك.

يصف ابن القيم رحمه الله تعالى عذاب أهل الدنيا، فيقول: (إن محب الدنيا أشـد الناس عذابًا بهـا، وهو معذب في دوره الثلاث؛ يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونـه قد حيل بينه وبين محبوبـه على وجه لا يرجو اجتماعـه بـه أبدًا، ولم يحصل لـه هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشـد النـاس عذابًا في قـبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسـده، والمقصـود: أن محب الدنيا يعذب في قبره ويعذب يوم لقاء ربه.

قال تعـالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

قـال بعض السـلف: (يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسـهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها)[2].

ويقول في موطن آخر:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) عدة الصابرين ص٣٥٥، ٣٥٦.

(فالزاهد أروح الناس بدنًا وقلبًا؛ فإن كان زهده وفراغه في الدنيا قبوله في إرادة الله والدار الآخرة، بحيث فرغ قلبه لله، وجعل حرصه على التقرب إليه، وشحه على وقته أن يضيع منه شيء في غير ما هو أرضى لله وأحب إليه، كان من أنعم الناس عيشًا، وأقرهم عينًا، وأطيبهم نفسًا، وأفرحهم قلبًا، فإن الرغبة في الدنيا تشتت القلب وتبدد الشمل، وتطيل الهم والغم والحزن، فهي عذاب حاضر يؤدي إلى عذاب منتظر أشد منه، وتفوت على العبد من النعم أضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة في الدنيا.

قال الإمام أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا محمد يعني ابن مسلم عن إبراهيم يعني ابن ميسرة عن طاوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، وإن الرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن**»[1]، وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين أحدهما: الرغبة في الدنيا والحرص عليها، والثاني: التقصير في أعمال البر والطاعة)[2].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند قوله تعالى عن المنافقين والكافرين: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ

(١) رواه أحمد في الزهد ص١٦، وابن أبي الدنيا (١٣١)، والحديث ضعيف.
(٢) عدة الصابرين ص٤٠٦.

جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨]، (وقد قيل إن قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النفسية غمًّا وحزنًا وقسوة وظلمة قلب وجهلًا، فإن للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم إلا بما يزيل عقولهم، ويلهي قلوبهم، من تناول مسكر، أو رؤية مُلهٍ، أو سماع مطرب، ونحو ذلك[1].

ويتحدث المسلم النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس سابقًا) عن المجتمع الغربي وقصة إسلامه، قال: (كنت مسافرًا في سنة (١٩٢٦م) في قطار برلين تحت الأرض، وكان معي زوجتي وهي رسامة وذكية جدًّا، وقد لاحظت أن كل زملائي في هذه الدرجة (درجة أولى) مكتئبون، تعلو وجوههم كآبة، ويغشاها قتام، وكان ما يحملونه من متاع، ويلبسونه من ملابس، ويتحلون به من خواتم، يدل على أنهم من الطبقة الثرية، وكان الزمن زمن الرخاء، الذي أعقب سنوات التضخم في أوروبا، فأنا تحيرت وفكرت، وقلت: لماذا هذه الكآبة؟ وما سبب هذا الحزن العميق الذي هم غارقون فيه؟ ولفت نظر زوجتي، وقلت: يا عزيزتي، انظري وجوه هؤلاء القوم! ألا تشعرين بأنهم تعلوهم الكآبة؟ قالت: نعم، إنهم جميعًا يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم!!

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢١.

وأردت أن أفسر هذه الظاهرة فلم أنجح، ورجعت إلى مكتبي فإذا المصحف أمامي، فأخذته من غير قصد، وفتحته من غير اختيار، فإذا سورة التكاثر تطالعني، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، وكنت مترددًا هل أدخل في الإسلام أو لا أزال أشرحه وأعرضه بالأسلوب العلمي العصري كما كان شأني؟ ولما قرأت هذه السورة قلت: والله إن هذا الكلام لا يأتي به إلا من ينزل عليه الوحي!! هذا الكلام لا يقوله بشر قبل ثلاثة عشر قرنًا، إنه يصور المجتمع الغربي المعاصر الراقي بقساته ومخايله، ويتنبأ بالعذاب النفسي الذي يتميز به هذا القرن العشرون، على الرغم من رقيه الصناعي والحضاري، ويعين مصدر هذا العذاب والشقاء، الذي كان يعانيه ركاب القطار، ويعانيه المجتمع الأوروبي بشكل عام، وهو داء التكاثر لا غير، فمن ساعتي خرجت إلى صديق لي مسلم (هندي) وقلت: يا أخي: ماذا يفعل من يريد أن يدخل الإسلام؟ قال: يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فنطقت بالشهادتين وأصبحت مسلمًا)[1].

(١) عن مقال (ألهكم التكاثر) د. محمد العبدة موقع الإسلام اليوم.